بسم الله الرحمن الرحيم ١٤٢٥/١٢/١٢

(التحوّل من الفقه إلى الحجامة)

قد يُضطر فقيه في الماضي إلى صرف قليل أو كثير من وقته للحجامة كما يشير المثل الذي عُنونت به هذا المقال؛ لأن الفقه لم يُتخذ قبل قرن تقريباً عرضاً من عروض التجارة الدنيوية، والحجامة سبب صالح مشروع ومهنة قديمة مفيدة للحاجم والمحجوم لا يُعرف لها من الآثار الضارة ما لا يكاد يشمله من علاج حديث.

ولكن المصيبة الحقيقية أن يتحوّل أكثر طلاب العلم اليوم (الذين هيأ الله لهم التفقه في الدين وكفاهم أمر المعيشة) عن التفقه في نصوص الوحي إلى الفكر المنسوب زوراً إلى الإسلام سعياً لكسب ألقاب الدراسات الأكاديمية ومن ورائها المال أو الجاه أو السلطة.

وإلى القارئ ما عرفته عن واحد أظنه من خير هؤلاء [illegible]:

٢) عرفتُ أخي في الدين (وفي وطن الدعوة إلى منهاج النبوة المتميّز في القرون الثلاثة الأخيرة بمحاربة الشرك والابتداع) سفر الحوالي من زياراتي له في مكتبه الذي تبوّأه في خدمة الدولة المباركة، واستماعي لدروسه التي فتحت لها الدولة المباركة المساجد في مكة وجدة وبخاصة مكتبة المسجد الحرام، وأشرطته (في الرد على فتنة محمد علوي المالكي خاصة وعلى المخرّفين عامة)، وقرأت له خير ما كتب (في الرد على محمد علي الصابوني خاصة والأشاعرة عامة)، فلم أجده متميزاً في أشرطته ولا دروسه ولا كتبه (وهي الأقل عدداً) [illegible] أو يَنشط في نشر العلم، ولكني وجدته متميزاً بما هو أحبّ إليه من ذلك في هذا العصر: محاولة السباحة ضد تيار الفكر الإسلامي - زعموا - والحزبية والحركية الإسلامية - زعموا - الذي كاد طوفانه أن يُغرق الجامعات في بلاد التوحيد والسنة، ومنها جامعة أم القرى التي موّلت الدولة المباركة تعلّمه ثم تعليمه فيها. ويشكر الله تعالى فضل من بذلك عليه وعلى.

ب) وفي الأمة اليوم من الفقهاء والمحدثين على قلتهم ما تقوم به الكفاية، والجامعات اليوم لا تُخرّج الفقهاء ولا المحدثين، والقليل ممن بلغوا هذه الدرجة مثل الشيخ صالح الفوزان بلغوها رغم انشغاله بتحصيل لقب (الدكتوراه) وليس بسببه، وإنما بصرف وقته بعد الجامعة في البحث والتعلّم والتعليم والدعوة على منهاج النبوة.

وأكثر منه لهؤلاء: من بلغ درجة العالم والمحدّث دون عون من الدراسات الجامعية في هذا العصر، وخير مثل لهذه الفئة المباركة: الشيخ علي بن حسن عبد الحميد (الحلبي)، فضلاً عن ابن باز والألباني رحمهما الله.

ودرجة الدكتوراه الحقيقية - لا المزيفة - تأتي نتيجة لدراسة مسألة واحدة
أو تحقيق مخطوطة (عدمها خير من وجودها) لا تضيف شيئاً إلى العلم
الشرعي - لو أمكن ذلك - ولكنها توفي بشرط من شروط الترقية المصرية
ج) وكان نصيب سفر الحوالي رسالة عن الإرجاء تحت إشراف كاتب حركي
غير متخصص في الشريعة (محمد قطب)، ومنها أخذ (سفر) أو أظهر عن سبب اختياره
هذه الجزئية من جزئيات علم الاعتقاد - والحكم على الظاهر -، ومن مناطه
تشربه بغيرة حسنية مستمرة من فضائله في المراحل الأولى من حياته: (الاهتمام
بالأهم وهو الاعتقاد، ولو في أدنى مسائله. وتقسيم العلم أو تجزئته
مصيبة أوتيناها تقليداً للجامعات الأوربية والأمريكية التي تحولت
(قبل قرن) من الشمول تحت عنوان: كلية العلوم (أو الفنون) والآداب،
أو كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، إلى التفتيت في عشرات أو مئات
الكليات التي لم تعد كليات بل جزئيات، وكانت مصيبتها أهون لأن
غاياتها الدنيوية، أما علم الدين الذي يبتغى به وجه الله والدرجات العلى في
الآخرة فلا يليق به إلا ما كان عليه أمثال ابن باز ومن سبقه رحمهم الله.
د) وما كان من المألوف أن يختار مثل سفر (أو مثل أستاذه والمشرف على
محمد قطب) مسألة الإرجاء للتركيز عليها، لأن الكتّاب والمفكرين الحركيين
والحزبيين (الموصوفين زوراً بالإسلاميين) يدعون أنه من عيوب السلفيين
انشغالهم (بالمسائل القديمة) عن (القضايا المصيرية الحادثة)، وفي لفظ
المودودي رحمه الله (برواية إسماعيل بن عتيق حفظه الله): (الانشغال بهدم
القبور عن هدم القصور)، وفي لفظ سيد قطب رحمه الله: (الانشغال
بفقه الأوراق عن فقه الواقع أو الحركة) في ظلاله ص ٢٠٠٦؛ ولذلك ظن بعض
طلاب العلم الشرعي (وبعض الظن إثم) أن الأستاذ المشرف قصد بتوجيه تلميذه
إلى هذا الاختيار مظلة أكاديمية للتشكيك في بعض علماء السنة
الصحيحة (تصديقاً لوصف الحركيين إياهم بأنهم علماء السلطان الذين
يشترطون لكفره الاستحلال والجحود) وفي الوقت نفسه تزيين الخروج
على السلطان بحجة كفره بالكلية (اقرأ إن شئت: مدارك النظر في
السياسة لمؤلفه عبد المالك بن أحمد رمضاني الجزائري فهو خير مرجع
عرفته في بابه). أما أنا فلا أملك إلا حسن الظن بنية أخي ومحاسبته
إلى من خطئه في اختيار مسألة رسالته وخطئه في منهج ونتيجة دراستها.
«وكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»، وقد بدأ خطؤه:
١) في اختيار هذه الجزئية من الاعتقاد والانشغال بها (للبعد عن القضايا
الحادثة) عن أهم أمر في الاعتقاد أرسل الله به كل رسله: إفراد

الله بالعبادة ونفيها عمّا سواه. قال الله تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كلّ أمّة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾، وقال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلّا نوحي إليه أنّه لا إله إلّا أنا فاعبدون﴾، وأكثر المنتمين إلى الإسلام اليوم يتقرّبون إلى الله بصرف شيء من العبادة لغيره وبخاصّة: الدّعاء وطلب المدد والذبح والنذر ونحوها.

أمّا الإرجاء فهو - لو تحقّق - لا يتجاوز الخلاف بين العلماء أو طلاب العلم الكبار، وهم الأقلّون في الأمّة، فهو لا يتجاوز الخلاف اللفظي إذا أنّهم من الدّعاة إلى التوحيد والسّنّة (كما فهمت من رد ابن تيمية التهمة عن الإمام أبي حنيفة وأمثاله رحمهم الله جميعاً)، وهو في هذا العصر سلاح يهوّش به أهل التكفير ويخوّفون به من يخالفهم من دعاة الأمّة الوسط. هذا ما ظهر لي من متابعة الأمر، والله أعلم.

ي) أمّا منهاج (الدراسة) ونتيجتها فأحيل القارئ إلى من أهّله الله لتقويمها: محدّث العصر ناصر الدين الألباني، وتلميذه علي الحلبي الدّاعي إلى الله على بصيرة، (ولكلّ منهما نحو مائتي مؤلّف، وأهمّ من العدد: التزام كلّ منهما بالوحي والفقه فيه إذ أعاذهما الله من الظّنّيّة ومصادرها من الجرائد والمجلّات والإذاعات والإشاعات، ووفّقهما الله لأخذ من نصوص الكتاب والسّنّة بفهم سلف الأمّة في القرون المفضّلة) في مؤلّفهما (الدرر المتلألئة) من تعليقات الألباني (وتقديم وتعقيب الحلبي) على رسالة سفر: (ظاهرة الإرجاء)، وهما من بلاد الشام المبارك.

- وما أخذ منهجيّة على سفر الحوالي تأليف ربيع المدخلي من مكة المباركة.
- وتنبيهات على كتاب (ظاهرة الإرجاء) تأليف أنس الصعبي من الإمارات.
- وحوار مع الحوالي في كتابه (ظاهرة الإرجاء) تأليف عبد العزيز الريّس من الرياض، وهو من أجود ما قرأت من حيث الإيجاز والشمول.
- وردّ على سفر لكلّ من بلال برهامي من مصر وهشام لخضاري من الجزائر.
- وعدد من التعقيبات عليه أخذتها من شبكة الاتّصالات العالميّة.

٢) وفي الشبكة نفسها بضع كتب لسفر الحوالي أكبرها رسالته في الإرجاء (مجلّدان) والعلمانيّة (مجلّد) إضافة إلى قصيدة وخطاب وبيانه وبناء وردّ وحوار... إلخ. يغلب عليها جميعاً الفكر ومرجعها الظّنّيّة، عدا رسالته الموجزة عن عقيدة الأشاعرة - كما أشرت - فهي وحدها (مميّزة عن كلّ ما كتب) الأقرب إلى الفقه والعدل والسّنّة، ولكنّه يبدو غير راضٍ عنها ولا آبه بها ولا موافق على نشرها.

ولي ردّ مستقلّ بعنوان (الرّدّ على الخرافيين) وطبع أخيراً بعنوان: (مجدّد

ما أن عمرو بن لحيّ يردّ فيه ضلالات زميله محمد بن علوي المالكي والمتصوّفة
عامة، وعنوانه موضوعه - مثل عقيدة الأشاعرة - نادر بين كتبه
ودروسه بُعداً عن الفكر والظنّ وقرباً من السنّة واليقين، ولكنّه
مُرتجل ومرتبك، وقد فشلت في محاولتي إعداده للطبع، فطلبت
من أحد سامعيه أن يعانيه لمعرفتي بميله إلى سفر، وحاول ففشل.
هـ) وكما قلت من قبل، يكفاني من سفر تميّزه بين الفكريّين باتخاذ كتاب
(الطحاويّة) بل شرحه لابن أبي العزّ الحنفي إطاراً أو وعاءً أو على الأقل
عنواناً لدرسه الثابت في جدّة، كما كان (حافظ برهان بخاري) يتّخذ كتاب
(فتح الباري) إطاراً أو وعاءً وسياجاً لدرسه الثابت في المسجد الحرام حتى
أقعده الكبر عنه غير مبتذل ولا مفتن، قدوة صالحة نادرة لدعاة السنّة.
و) وفي نهاية العقد الأول من القرن الخامس عشر سمعت أول أشرطة سفر
في التحليلات السياسيّة ورفقه (بل نقل) الواقع المبنيّ على الخرص
ومنافسة وسائل الإعلام في محاولة السبق بالخبر دون اهتمام
بصدق أو كذب خبره أو شرّه في مخالفة صريحة للآية المحكمة: {وإذا جاءهم
أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم
لعلمه الذين يستنبطونه منهم}، وأنّى لأولي الأمر (بل الصحفيين) أولى
بمعرفة الخبر من طلاب العلم الشرعي، لتخصّصهم فيه وممارستهم له.
ز) ظنّيّة وأخطاء سفر في أولى محاولاته التحليليّة الإعلاميّة - أن القادة
الشيوعيين تظاهروا بتفكّك الاتحاد السوفيتي ليستطيعوا نشر
الشيوعيّة خارج حدودها (وراء الستار الحديدي)، وغفل عن أن الاتحاد
السوفيتي هو الذي بنى جدار برلين من الستار الحديدي (الاصطلاح
الدعائي الذي أطلقه تشرشل أو غيره بعد بناء الجدار).
ح) كان المتابعون لدروس سفر في عهده الأقرب إلى الفقه لا يتجاوزون
عدد الأصابع، فالفقه في الدين لا يجذب الأكثرين الباحثين عن دروس
التسلية من الشعر والقصص والفكاهة والتهييج والترهيب أو من
الرقائق، أمّا في عهده الأقرب إلى الفكر فصبّ الشباب يتسابقون
لسماع دروسه، وكأنما كان لسان حالهم يقول: {ربنا استمتع بعضنا ببعض}.
ط) وجاءت فتنة احتلال العراقيين الكويت، واحتلت الفكر والظنّ والعاطفة
دروس سفر احتلالاً كاملاً أبعد في ذلك شرح الطحاوية، وبدأ ينقص غزله:
صار التحزّب مقبولاً بعد أن كان مرذولاً، وصارت (المعتزلة والخوارج والرافضة
مأمونة على الدعوة إلى الإسلام؛ لأنّ منزعها انبعث من داخل الأمّة) وصار محمد
عمارة وفهمي هويدي وأمثالهما أهلاً لجمع الحقّ والعدل (مع سفر)

في (الحملة العالمية لمقاومة الشّرّ) بعد أن كانت تحكم عليهم (بالصعود) على الإسلام (بإنكار السنّة، وتحريف وتأويل وتطويع الإسلام للفكر الغربي، والتقريب بين الأديان، وتبديل أصول الفقه في السيرة، وفقه المعاملات الشرعية للتطور العصري، وتتبع الرخص والآراء الشاذة، وأنّ هدفهم الهدم أكثر من البناء)، ثم تغيّرت فيهم بعد تحوّلهم من الفقه إلى الفكر.

ي) ولم يتزعزع خطؤه في فهم (واقع التفكك الشيوعي) بعد أن فضحت محاولة القادة الشيوعيين الثورة على (كورباتشوف) ودعاة الديمقراطية فوقع مرة أخرى (بل مرات) في خطأ فهم (واقع اشتراك القوات الدولية في تحرير الكويت فظن أنها (جاءت لتنفيذ خطة معينة لاحتلال وتنصير جزيرة العرب)، وأنّ هذه القوات (لن تضرب العراق)، وأنها (لن تخرج من الجزيرة) مستدلاً بنقله جريدة أمريكية عن تصريح لأحد موظفي وزارة الدفاع الأمريكية بأن تحرير الكويت يحتاج إلى استمرار الحرب بضع سنين. وغفل عن تماديه أمريكا مع المنطقة منذ عقود بلا احتلال ولا تنصير.

ل) صارت الجرائد العربية والغربية من أهم مصادره ومراجعه للفكر الواقعي بعد أن كان يصف العربية منها بأنها ذيل للإعلام الغربي الضال، فتكلم مثلاً عن تقرير سري عسكري بلغه بطريق متواتر (عن جريدة المدينة عن جريدة القدس)، ولا أعرف الذي من جريدة القدس برقم ٨.

ل) قال لي مرة أثناء الفتنة: ألا تعلم أن أمريكا تمنع تعليم الإنجيل في المدارس العامة منذ عشرات السنين وتمنع إعانة المدارس الخاصة التي تعلّمه؟ وكأنه فوجئ بهذا الخبر الذي لم يتضمن فكره الواقعي لكنه جادل بأنّ (كارتر) كان متديناً، وهذه إشارة أخرى إلى ضعف في الفكر الواقعي فإنّ أمريكا وأوروبا تديرها المؤسسات لا الأفراد فهم تأثير يذكر لتديّنه الرسمي أو الشخصي إذا أنّ العلمانية هي المسيطرة وهي تنفي التربية الدينية.

م) وضرب (عبد الملك رمضاني) مثلاً لجهل مُدّعي (فقه الواقع) بالواقع بحكم سفر على أحداث الجزائر مع اعترافه بأنه (لا يعرف الكثير عن جبهة الإنقاذ ولا يعرف ولم يقابل ولم يرَ قائديها)، وثبت من كلامه أنه لا يفقه واقع جبهة التحرير الحاكم أيضاً فقد وصفها بالاشتراكية بعد أن تخلت عنها بضع سنين واستعاضت عنها بالديمقراطية العربية، ثم ذكر أنّ الدستور ينص على أنّ الجبهة حزب علماني، ولا نصّ في الدستور بذلك (مدارك النظر في السياسة) ص ٤٠٢-٤٠٤.

ن) وبانصرافه عن الفقه إلى الفكر خلط بين التعاون مع غير المسلم والولاء له؛ وقد شرع الله التعاون والمعاملة بالحسنى مع غير المسلم وحرّم الولاء

إلا لله ولرسوله وللمؤمنين، وقد دخل النبي صلى الله عليه وسلم في جوار
المطعم بن عدي وهو مشرك، وعامل المشركين واليهود (الأشد
عداوة) بالبيع والهبة والعارية والرهن والإجارة، وأشهرها وأوثقها
مزارعة اليهود في خيبر (وهم الحربيون الذين نقضوا عهدهم له في كل مرة)
ولكنه لم يوال أحداً منهم، وحاشاه أن يفعل ذلك.

س) وبسبب الخلط بين الولاء والمعاملة، وبسبب دعوى فقه أو فكر الواقع
وقع شقاق (ومثّله من دعته من مفكري الواقع الخيالي) في عصرنا ولاة
أمر المسلمين من الأمراء والعلماء؛ فاتهمهم دعاة التوحيد والسنة (بأنهم لم
يحصروا الحكم بشرع الله إلا فيما يسمى (الأحوال الشخصية) وبعض
الحدود لأغراض الأمنية)، وغفل عن التزام المملكة المباركة بأهم الأحكام
الشرعية: إفراد الله بالعبادة ونفيها عما سواه فليس فيها مسجد واحد مبني
على قبر نبي أو ولي منذ هدمت (في المرحلة الأولى والثالثة) كل ما
بنته دول المسلمين منذ الفاطميين حتى نهاية العثمانيين من أوثان
الأضرحة والمقامات والمزارات والمشاهد، وغفل عن نشرها السنة
ومحاربتها للبدع والمعاصي فلا يوجد فيها زاوية صوفية ولا تقوم في مساجدها بدعة
واحدة، ولا يجاهر في أسواقها بخمر ولا خنزير ولا مخدر ولا فاحشة وجميع
أحكامها في الاعتقاد والعبادات وأكثر المعاملات قائم على شرع الله

ع) ولكنه انساق وراء الحزبيين والحركيين الذين لا يقيمون للاعتقاد والسنة وزناً.
واتهم كبار أئمة السنة وفقهاء الأمة بأنهم (يجاملون في السنة وأنهم بلغوا
في السنة إلى مرحلة...) واتهم أحد الخارجين على الجماعة (الإرجئة إلى أنظمة
بكلمة (الخرقي)، هداهم الله وكفى الإسلام والمسلمين شر فكرهم الواقعي.

ف) وكتبت لهم تقريباً بتاريخ ٢٤/١١/١٤١١ ثم بتاريخ ٢٠/٢/١٤١٤ ثم بتاريخ:
٧/٥/١٤٢٠، ونشرته مرتين في بيتي وحاولت مرة ثالثة (فلم ألق في
أيٍّ منها) لتذكيره بفرحتي لما كان عليه، وأسفي لما وصل إليه، وأملي
في رجوعه إلى الحق بعد ما تبين من خطئه وخطأ كثير من الناس
بسببه حتى قررت (بالإجماع) هيئة كبار العلماء بعد اطلاعها على رسالة:
(وعد كيسنجر) ودروسه (ودروس مخالفيه قبل موافقيه تقبلها له
العودة) في الثلاثة أشهر الأولى من عام ١٤١٤ إلى الطلب من ولاة الأمر:
(مواجهتهما بأخطائهما من قبل لجنة حكومية تضم اثنين من أهل العلم، فإن
اعتذرا والتزما بعدم العودة إلى مثلها فالحمد لله، وإن أصرا فيمنعان من الخطب
والتدريس العام والتسجيلات حماية للمجتمع من أخطائهما) (دورة ٤٦).
هدى الله الجميع للثبات على اليقين من الوحي والفقه وجنبهم فتنة الفكر وأهله؟